المرحلة الثانية

﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾

الوقفة الرابعة

[وكان في طريقه إذا سلك راهب].

وفيها درس : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ ﴾ :

قضت حكمة الله ـ عز وجل ـ ألا يظهر الباطل في مكان إلا ويغرس فيه من الحق ما يدمغ به الباطل ويُزهِق روحه وهذا من سُنن الله الكونية التي تبعث فينا الأمل فقد يستولى اليأس على بعض النفوس حينما ينتشر الباطل ويظنون أن الحق إلى اندثار ونسوا أو تناسوا أن أشد ساعات الليل ظلمة ما يسبق الفجر فمن كمال حكمة الله ألا يأخذ الباطل إلا وهو في عنفوان قوته فيرسل الله ـ عز وجل ـ من الحق ما يدمغ به هذا الباطل فلا تقوم له قائمة ولا يستقيم له عود لأن الله ـ عز وجل ـ قال : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (١٨) ﴾ [الأنبياء : ١٨] .

ويُفهم من الآية أن الباطل كان أسبق من الحق في الوجود ثم يجيء الحق فيدمغه أي يصيبه في دماغه (في أم رأسه) ومن أصيب في أم رأسه هلك فلا تقوم له قائمة بعد ذلك، وأيضاً يكون القذف بالحق على أعلى نقطة في الباطل، فكلما تمكن الباطل واستفحل خطره كان ذلك إيذاناً بقرب زواله، فأقول لليائسين اعلموا أن دولة الباطل ساعة ودولة الحق إلى قيام الساعة، وأبشروا بظهور الباطل ولا تفرحوا به، وادعوا الله ـ عز وجل ـ أن تكونوا ممن يقذف الله به على الباطل، لأنه في هذه اللحظة إما أن تكون مقذوفاً أو مقذوفاً به، فهنيئاً لك إن كنت من الصنف الثانى، ويا ويله من كان من الصنف الأول، لأن الأول هم أهل

الباطل، والثاني هم أهل الحق.

واعلم أنه ما استفحل الشر في مكان إلا ويُظهر الله ـ عز وجل ـ فيه من الخير ما يُزيل به هذا الشر والأمثلة على ذلك كثيرة منذ بدء الخليقة وحتى اليوم، فما خلق الله آدم عليه السلام إلا بعدما أفسد الجن في الأرض وسفكوا الدماء واستطار شرهم [١].

ولما استفحل أمر السحر في بني إسرائيل وظنوا أن الساحر على كل شيء قدير أرسل الله ـ عز وجل ـ موسى عليه السلام بعصاه ليبطل هذا الاعتقاد وينصر الحق ويبطل سحر السحرة، وكان من كمال حكمته أن يُخرِجوا أعظم سحر عندهم فألقوا حبالهم وعصيهم فتحولت إلى حيات صغيره، فإذا بعصى موسى تتحول إلى حية عظيمة، لا لتتشاجر مع حياتهم وتتركها صرعى، ولكن قامت بالتهامها جميعاً فلم تُبْقِ من وسائل الباطل شيئاً.

وفي زمان عيسى عليه السلام برعوا في الطب حتى ظنوا أن الحياة والموت بأيديهم فبعث الله ـ عز وجل ـ عيسى بن مريم عليه السلام وأقدره على أن يشفي من الأمراض ما عجز الطب عن شفائه كإبراء الأكمه وهو من ولد أعمى وهذا يصعب شفاؤه بل قد يستحيل في معظم الأحيان ولكن الله ـ عز وجل ـ أقدر عيسى عليه السلام على شفائه إمعاناً في التحدي وترسيخاً للحق في النفوس.

وقبل مبعث النَّبيّ محمد ﷺ نظر الله ـ عز وجل ـ إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب [٢] وما مقتهم الله ـ عز وجل ـ إلا لشدة ضلالهم واستفحال باطلهم، ولما كان العرب أهل لغة وبيان وفصاحة ينصرون بها الباطل ويمجدون بها الأوثان لدرجة أنهم يعبدونها من دون الله أرسل الله ـ عز وجل ـ الحبيب محمد ﷺ خير من نطق بالضادية بجوامع الكلم فانزوى أهل

---

(١) راجع في ذلك كتاب « مرض السحر » فقد بسطت القول هناك . من مطبوعات دار الإيمان الإسكندرية .

(٢) قطعة من حديث طويل رواه مسلم عن عياض بن حماد رضي الله عنه برقم ٦٣ / ٢٨٦٥ ، وابن حبان برقم٦٥٣ ، وسنن النسائي الكبري برقم ٨٠٧٠ ، وكنز العمال برقم ١١٣٠٦ ، والسيوطي في زيادة الجامع الصغير برقم ١٨٨٠ ، و أحمد برقم ١٧٥١٩ ، والطبراني في الكبير برقم ٩٨٧ .

الفصاحة في الحنايا واعتنق الناس توحيد رب العالمين.

حتى في زماننا هذا أمثلة عديدة نكتفي منها بهذا المثال ففي زمن الطرب الأصيل - كما يسميه أهل العفن الفني - تغنت أم كلثوم وعبد الحليم وغيرهم من أهل الفساد بكلمات الفجور والمجون ، فإذا برب البرية يمتعنا بالمنشاوي والحصري والبنا وعبد الباسط يقرأون القرآن غضاً كما أُنزل ، حتى قال قائلهم عجبت لأهل مصر عندهم المنشاوي ويسمعون أم كلثوم، وقال آخر: نزل القرآن في الحجاز وقُرىء في مصر.

وإن المتصفح لصفحات التاريخ يجد أنه ما من نومة للإسلام إلا وتلاها قومة، وفي أيامنا هذه أما آن للإسلام أن يخرج من قمقمه، فقد طال الرقاد، فنسأل الله أن تكون قومته ونهوضه عما قريب، وأن يجعلنا لبنة في بناء صرحه، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

الوقفة الخامسة

[فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه]

وفيها درس: الفطرة السليمة ودورها في توجه الأفراد :

(الإسلام دين الفطرة)[١]، والفطرة هي بداية الخلقة، وهي أمر كوني قدري جبلي يغرسه الله في نفس كل إنسان، وبمقتضاه يستدل الإنسان على أن له رباً، خالقاً تجب عبادته، فإن غُيرت فطرته أو شُوهت فسد هذا الاستدلال، وإنما يكون هذا التغيير من قبل الأشخاص المقربين من الطفل وبخاصة والديه ولذلك ورد أن أبا هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « **ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء** » . ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه : ﴿ فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ﴾ [الروم : ٢٠][٢].

فما من مولود إلا ويولد على فطرة سليمة، نقية كاملة غير منقوصة، مثله في ذلك كمثل البهيمة تلد مولودها كاملاً له أعضاؤه كما خلقه الله ـ عز وجل ـ ، ولكن صاحبه قد يقطع أذنه أو أنفه أو ذيله فيشوه تركيبه الذي خلقه الله ـ عز وجل ـ عليه، وكذلك الطفل لو تُرك لحال سبيله لاستدل بفطرته السليمة على أن له رباً يجب أن يُعبد، وبذلك يكون مسلماً، لأن الإسلام دين الفطرة، ولكن إذا دُنست فطرته من قِبل المقربين منه عن طريق أفكار مغلوطة، وعقائد فاسدة،

---

(١) قالها البخاري في كتاب التفسير ، تفسير سورة النحل الآية رقم ١٢٠ في معنى كلمة حنيفاً « مائلاً عن الشرك إلى التوحيد والإسلام دين الفطرة » .

(٢) رواه البخاري برقم (١٢٩٢، ١٢٩٣ ، ١٣١٩ ، ٤٤٩٧، ٦٢٢٦) ، ومسلم برقم ٢٢ / ٢٦٥٨ ، وأبو داود برقم ٤٧١٤ ، والترمذي برقم ٢٢٢٣ .

وأهواء متضاربة، قد لا ينحرف في إسلامه فقط، بل قد يعتنق ملة أخرى غير الإسلام كاليهودية، أو النصرانية، أو المجوسية، ولذلك اهتم الإسلام باختيار الزوجة الصالحة لأنها هي التي سترعاه في سني عمره الأولى، ومنها يتشرب ما تستقر به فطرته على ما فطره الله عليه، أو تُدنس وتُشوه بباطل لا يعلم مداه إلا الله ، فقد ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النَّبيّ ﷺ قال: «**تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك**» [١]. لأن ذات الدين سترضع ابنها دينها مع لبنها، أما غير الدَيِّنة فسيرث منها كل رذيلة.

يقول ابن القيم - رحمه الله -:

تخير من المرضعات أزكاهن وأفضلهن فإن للبن تأثيراً في طبيعة المرتضع، ورضاع المرأة الحمقى يعود بحمق الولد، وأنفع الرضاعة ما كان من المجاعة [٢].

ولذا قيل :

وليس النبت ينبت فى جنان ... كمثل النبت ينبت فى الفلاة
وهل يرجى لأطفال كمال ... إذا ارتضعوا ثدى الناقصات[٣]

ومن أدل الأدلة على أهمية دور المرأة في تربية الأبناء أن مفاخر الرجال على مر العصور ربتهم أمهاتهم، فهؤلاء رسل الله صلوات الله عليهم أجمعين بعضهم ربتهم أمهاتهم، فقد تربى إسماعيل عليه السلام في حجر أمه هاجر عليها السلام، وربت موسى عليه السلام أمه في بيت فرعون بعدما حُرِّمت عليه المراضع، وتربى عيسى عليه السلام بيدى أمه مريم ابنة عمران، وها هو الرسول ﷺ ربته حليمة السعدية وهي أمه من الرضاع ثم أمه آمنة، ولو دققت النظر في أولئك الرسل لوجدت أن منهم ثلاث من أولي العزم من الرسل.

رواه البخاري برقم ٨٤٠٢ ، ومسلم برقم ٥٣ / ١٤٦٦ ، والنووي في رياض الصالحين برقم ٣٦٤ ، وابن ماجة برقم ١٨٥٨ ، وأبو داود برقم ٢٠٤٧ ، وابن حبان برقم ٤٠٣٦ ، والدارقطني برقم ٢١٢ ، وسُنن النسائي الكبرى برقم ٥٣٣٧ ،والسيوطي في الجامع الصغير برقم ٣٣٧٢ .

الفوائد ص ٢٣٢ . أستاذ المرأة ص ١٣٢ بتصرف ، نقلاً من عودة الحجاب ص ٢٤١ .

يقول الشيخ محمد بن احمد اسماعيل المقدم ـ حفظه الله ـ :

إذا قلبت صفحات تاريخنا الإسلامي، فلا تكاد تقف على عظيم ممن ذلت لهم نواصي الأمم، ودانت لهم الممالك، وطبَّق ذكرهم الخافقين، إلا وهو ينزع بِعِرْقه وخُلُقه إلى أم عظيمة، وكيف لا يكون ذلك والأم المسلمة قد اجتمع لها من وسائل التربية ما لم يجتمع لأخرى ممن سواها؟ ، مما جعلها أعرف خلق الله بتكوين الرجال، والتأثير فيهم، والنفاذ إلى قلوبهم، وتثبيت دعائم الخُلق العظيم بين جوانحهم، وفي مسارب دمائهم :

فالزبير بن العوام رضي الله عنه :فارس رسول الله ﷺ ،الذي بلغ من بسالته وبطولته، أن عدل به الفاروق رضي الله عنه ، ألفاً من الرجال، حين أمد به جيش المسلمين في مصر، وكتب إلى قائدهم عمرو بن العاص رضي الله عنه يقول : أما بعد : فإني أمددتك بأربعة ألاف رجل، على كل ألف : رجل منهم مقام الألف : الزبير بن العوام، والمقداد ابن عمر، وعبادة بن الصامت، ومسلمة بن خالد ـ رضي الله عنهم ـ .

وقد صدقت فراسة الفاروق رضي الله عنه ،وسجل التاريخ في صفحاته أن الزبير لا يعدل ألفاً فحسب، بل يعدل أُمَّة بأسرها، فقد تسلل إلى الحصن الذي كان يعترض طريق المسلمين، وصعد فوق أسواره وألقى بنفسه بين جنود العدو، وهو يصيح صيحة الإيمان : "الله أكبر" ... ثم اندفع إلى باب الحصن، ففتحه على مصراعيه، واندفع المسلمون، فاقتحموا الحصن، وقضوا على العدو قبل أن يفيق من ذهوله. هذا البطل العظيم إنما قامت بأمره أمه صفية بنت عبد المطلب عمة النَّبيّ ﷺ ، وأخت حمزة أسد الله ، فقد شب في كنفها، ونشأ على طبعها، وتخلق بسجاياها.

عبد الله، والمنذر، وعروة أبناء الزبير :كانو ثمرات أمهم أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما ، وما منهم إلا له الأثر الخالد، والمقام المحمود.

وأمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه : تنقل في تربيته بين صدرين من أملأ صدور العالمين حكمة وأحفلها بجلال الخلال، فكان مغداه على أمه فاطمة

بنت أسد، ومراحه على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها زوج رسول الله ﷺ .

وعبد الله بن جعفر: سيد أجواد العرب وأنبل فتيانهم، تركه أبوه صغيراً، فتعاهدته أمه أسماء بنت عميس، ولها من الفضل ما لها .

وأمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما: أريب العرب وألمعيُّها، ورث عن هند بنت عتبة همة تجاوز الثريا، وهي القائلة ـ وقد قيل لها ومعاوية وليد بين يديها: « إن عاش معاوية ساد قومه » : « ثكلته إن لم يسد إلا قومه » ، ولما نعي إليها ولدها يزيد بن أبي سفيان قال لها بعض المعزين: إنا لنرجو أن يكون في معاوية خلف منه ، فقالت: «أوَ مثلُ معاوية يكون خلفاً من أحد ؟ ، والله لو جمعت العرب من أقطارها، ثم رُمِيَ به فيها، لخرج من أيها شاء» .

وكان معاوية رضي الله عنه إذا نوزع الفخر بالمقدرة، وجوذب بالمباهاة بالرأى، انتسب إلى أمه فصدع أسماع خصمه بقوله : « أنا ابن هند » [١] .

وعبد الله بن زيد المازني: الذي حكى وضوء رسول الله ﷺ، والذي قتل مسيلمة الكذاب بسيفه[٢]، وقُتل هو يوم الحرة .

وأخوه حبيب بن زيد بن عاصم المازني:الذي أخذه مسيلمة فقطَّعه،قطعة قطعة.

كلاهما كان ثمرة أم فاضلة مجاهدة هي أم عمارة نسيبة بنت كعب الأنصارية رضي الله عنها ،كان أخوها عبد الله بن كعب من البكائين، شهدت ليلة العقبة، وشهدت أُحداً،والحديبية، ويوم حنين،ويوم اليمامة،وجاهدت،وفعلت الأفاعيل.

وعبد الملك بن مروان: أمه عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن أبي العاص بن أمية، وكان لها من مضاء العزم، وذكاء القلب، ونفاذ الرأي ما لم يكن بعض الرجال في شيء منه.

---

(١) عودة الحجاب ٢ / ٢٠٠ وعزاه إلى المرأة العربية ٢ / ١٣٣ ـ ١٣٤ بتصرف، وقال : انظر معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما لمنير الغضبان ص ٣١ .

(٢) قال الشيخ / محمد بن أحمد بن إسماعيل ـ حفظه الله ـ : هكذا ذكره الحافظ الذهبي رحمه الله في سير أعلام النبلاء ٢ / ٢٨١ – ٢٨٢ ، وهو يخالف ما ذكره الحافظ ابن كثير رحمه الله في قصة مقتل مسيلمة الكذاب في البداية والنهاية ٦ / ٣٤١ ، ٦ / ٢٦٨ من أن الكذاب قتله وحشي بن حرب ، وأبو دجانة سماك بن خرشة الأنصارى.

وأبو حفص عمر بن عبد العزيز : أورع الملوك وأعدلهم وأجلهم، أمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب، أكمل أهل دهرها كمالاً، وأكرمهن خلالاً، وأمها تلك التي اتخذها عمر لابنه عاصم، وليس لها ما تعتز به من نشب ونسب، إلا ما جرى على لسانها قول الصدق في نصيحتها لأمها وهي التي نزعت به إلى أخلاق جده الفاروق .

وأمير المؤمنين عبر الرحمن الناصر : الذي ولي الأندلس وهي ولاية تميد بالفتن، وتَشْرَقُ بالدماء، فما لبث أن قرت له، وسكنت لخشيته، ثم خرج في طليعة جنده، فافتتح سبعين حصناً في غزوة واحدة، ثم أمعن بعد ذلك في قلب فرنسا، وتغلغل في أحشاء سويسرا، وضم أطراف إيطاليا، حتى ريض كل أولئك له، ورجف لبأسه، فكان أعظم أمراء بني أمية في الأندلس، حكم مدة خمسين سنة وستة أشهر، وبعدما كانت قرطبة إمارة، أصبحت مقر خلافة يحتكم إليها عواهل أوربة وملوكها، ويختلف إلى معاهدها علماء الأمم وفلاسفتها.

أتدري ما سر هذه الهمة، وما مهبط وحيها؟ ، إنها المرأة وحدها! فقد نشأ عبد الرحمن يتيماً قتل عمُّه أباه وعمره واحد وعشرون يوماً، فتفردت أمه بتربيته وإيداع سر الكمال وروح السمو في ذات نفسه، فكان من أمره ما علمت.

وسفيان الثوري : وما أدراك ما سفيان الثوري ؟ .

إنه فقيه العرب ومحدثهم، وأحد أصحاب المذاهب الستة المتبوعة، إنه أمير المؤمنين في الحديث الذي قال فيه زائدة: "الثوري يد المسلمين "، وقال الأوزاعي: " ولم يبق من تجتمع عليه الأمة بالرضا إلا سفيان"، وما كان ذلك الإمام الجليل، والعَلَم الشامخ، إلا ثمرة أم صالحة، حفظ التاريخ لنا مآثرها، وفضائلها، ومكانتها، وإن كان ضن علينا باسمها.

روى الإمام أبو عبد الله أحمد بن حنبل بسنده عن وكيع قال: " قالت أم سفيان لسفيان: " يا بنى! اطلب العلم،وأنا أكفيك بمغزلي" فكانت ـ رحمها الله ـ

تعمل، وتقدم له، ليتفرغ للعلم، وكانت تتخوله بالموعظة والنصيحة، قالت له ذات مرة ـ فيما يرويه الإمام أحمد أيضاً ـ : " يا بني إذا كتبت عشرة أحرف، فانظر: هل تري في نفسك زيادة في خشيتك وحلمك ووقارك، فإن لم تر ذلك، فاعلم أنها تضرك، ولا تنفعك " .

فهل من غرابة بعد هذا أن نرى سفيان يتبوأ منصب الإمامة في الدين، كيف وهو قد ترعرع في كنف مثل هذه الأم الرحيمة، وتغذى بلبان تلك الأم الناصحة التقية ؟!.

والإمام الثبت إمام أهل الشام وفقيههم، أبو عمرو الأوزاعى: يقول فيه أبو إسحاق الفزارى: " ما رأيت مثل رجلين: الأوزاعى، والثورى، فأما الأوزاعي فكان رجل عامة، والثوري كان رجل خاصة، ولو خُيِّرْت لهذه الأمة لاخترت لها الأوزاعى، لأنه كان أكثر توسعاً، وكان والله إماماً، إذ لا نُصيبُ اليوم إماماً، ولو أن الأمة أصابتها شدة، والأوزاعي فيهم، لرأيت لهم أن يفزعوا إليه " ، وقال الخريبى: " كان الأوزاعي أفضل أهل زمانه " .

وقال بقية بن الوليد: " إنا لنمتحن الناس بالأوزاعى، فمن ذكره بخير، عرفنا أنه صاحب سُنَّة " ، وقال العجلى: " شامي ثقة من خيار المسلمين " ، وقال الشافعى: " ما رأيت أحداً أشبه فقهه بحديثه من الأوزاعي " .

قال النووي ـ رحمه الله ـ : "وقد أجمع العلماء على إمامة الأوزاعي ، وجلالته، وعلو مرتبته، وكمال فضله، وأقاويل السلف ـ رحمهم الله ـ كثيرة مشهورة بورعه وزهده وعبادته وقيامه بالحق وكثرة حديثه وغزارة فقهه، وشدة تمسكه بالسُّنَّة ، وبراعته في الفصاحة، وإجلال أعيان أئمة عصره من الأقطار له، واعترافهم بمرتبته" .

وعن سفيان الثورى: " أنه لما بلغه مقدم الأوزاعى، خرج حتى لقيه بذي طوى، فحل سفيان رأس البعير عن القطار، ووضعه على رقبته، وكان إذا مر

بجماعة قال: " الطريق للشيخ " .

وذكر الشيخ أبو إسحاق الشيرازي في الطبقات أن الأوزاعي سُئل يعني الفقه - يعني استُفْتي - وله ثلاث عشرة سنة " .

ذلك الحبر البحر كأن أيضاً ثمرة أم عظيمة: قال الذهبي رحمه الله : " قال العباس بن الوليد: فما رأيت أبي يتعجب من شيء في الدنيا تعجبه من الأوزاعي، فكان يقول: " سبحانك تفعل ما تشاء ! كان الأوزاعي يتيماً فقيراً في حجر أمه، تنقله من بلد إلى بلد، وقد جرى حكمك فيه أن بلَغتَه حيث رأيته، يا بني ! عجزت الملوك أن تؤدب أنفسها وأولادها أدب الأوزاعي في نفسه، ما سمعت منه كلمة قط فاضلة إلا احتاج مستمعها إلى إثباتها عنه، ولا رأيته ضاحكاً قط حتى يقهقه ولقد كان إذا أخذ في ذكر الميعاد أقول في نفسي: أترى في المجلس قلب لم يبك ؟" .

قال أبو مسهر: " وكان الأوزاعي رحمه الله يحيي الليل صلاةً وقرآناً وبكاءً، وأخبرني بعض إخواني من أهل بيروت، أن أمه كانت تدخل منزل الأوزاعي، وتتفقد موضع مصلاه فتجده رطباً من دموعه في الليل " .

وهذه أم ربيعة الرأي شيخ الإمام مالك أنفقت على تعليم ولدها ثلاثين ألف دينار خلَّفها زوجها عندها، وخرج إلى الغزو، ولم يعد لها إلا بعد أن استكمل ولده الرجولة والمشيخة، وكانت أمه قد اشترتهما له بمال الرجل، فأحمد الرجل صنيعها وأربح تجارتها في قصة طلية [1] ساقها ابن خلكان، قال: " وكان فروخ أبو ربيعة خرج في البعوث إلى خراسان أيام بني أمية، وربيعة حمل في بطن أمه، وخلف عند زوجته أم ربيعة ثلاثين ألف دينار، فقدم المدينة بعد سبع وعشرين سنة وهو راكب فرساً، وفي يده رمح، فنزل، ودفع الباب برمحه، فخرج ربيعة وقال يا عدو الله أتهجم على منزلي ؟" ، فقال فروخ : " يا عدو الله أنت دخلت على حرمي ؟" ، فتواثبا حتى اجتمع الجيران، وبلغ مالك بن أنس، فأتوا يعينون

(١) الصغيرة العجيبة.

ربيعة، وكثر الضجيج، وكل منهما يقول: "لا فارقتك"، فلما بصروا بمالك سكتوا، فقال مالك: " أيها الشيخ لك سعة في غير هذه الدار"، فقال الشيخ: " هذه داري وأنا فروخ "، فسمعت امرأته كلامه، فخرجت، وقالت: " هذا زوجي، وهذا ابني الذي خلَّفه، وأنا حامل به" فاعتنقا جميعاً وبكيا، ودخل فروخ المنزل، وقال: " هذا ابني؟"، فقالت: " نعم"، قال: " أخرجي المال الذي عندك"، قالت ـ تُعَرِّضُ ـ : "قد دفنته وأنا أخرجه"،ثم خرج ربيعة إلى المسجد، وجلس في حلقته، فأتاه مالك وأشراف أهل المدينة، وأحدق الناس به، فقالت أمه لزوجها فروخ: " اخرج فصل في مسجد رسول الله ﷺ "، فخرج فنظر إلى حلقة وافرة، فأتاها فوقف عليها، فنكس ربيعة رأسه يوهمه أنه لم يره، وعليه قلنسوة طويلة، فشك أبوه فيه، فقال: " من هذا الرجل؟"، فقيل: " هذا ربيعة بن أبي عبد الرحمن"، فقال: " لقد رفع الله ابنى"، ورجع إلى منزله، فقال: " لوالدته: لقد رأيت ولدك في حالة ما رأيت من أهل العلم والفقه عليها"، فقالت أمه: "فأيما أحب إليك: ثلاثون ألف دينار أو هذا الذي هو فيه؟"، فقال: " لا والله، بل هذا"، فقالت: " أنفقت المال كله عليه"، قال: " فوالله ما ضَيَّعْتِه" .

إمام دار الهجرة مالك بن أنس ـ رحمه الله ـ : قال مطرف: " قال مالك: قلت لأمي: " أذهب، فأكتب العلم ؟" فقالت: " تعال، فالبس ثياب العلم"، فألبستني مسمرة[1]، ووضعت الطويلة على رأسي ، وعممتني فوقها، ثم قالت: " اذهب، فاكتب الآن"، وكانت تقول: " اذهب إلى ربيعة، فتعلم من أدبه قبل علمه" .

ثم إذا نشرنا صفحة العهد العباسى، بل صفحة العهد الإسلامي لا نجد في تضاعيفها امرءاً دنت له قطوف العلم والحكمة، ودانت له نواصي البلاغة والفصاحة كمحمد بن إدريس الشافعى فهو الشهاب الثاقب الذي انتظم حواشي الأرض، فملأ أقطارها علماً وفقهاً، ذلك أيضاً ثمرة الأم العظيمة.

---

(١) ثياب لونها بين الأسود والأبيض « رمادي » .

فقد مات أبوه وهو جنين أو رضيع، فتولته أمه بعنايتها، وأشرقت عليه بحكمتها، وكانت امرأة من فضليات عقائل الأزد[١] وهي التي تنقلت به من غزة مهبطه إلى مكة مستقر أخواله، فربته بينهم هنالك. وكانت أم الشافعي رحمها الله ـ باتفاق النقلة ـ من العابدات القانتات، ومن أزكى الخلق فطرة.

ثم قال: فأولئك هن الأمهات اللواتي انبلج عنهن فجر الإسلام، وسمت بهن عظمته، وصدعت بقوتهن قوته، وعنهن ذاعت مكارمه، ورسخت قوائمه، وهكذا كانت الأم في عصور الإسلام الزاهية، وأيامه الخالية: مهبط الشرف الحر، والعز المؤثل[٢]، والمجد المكين، وصدق الشاعر:

الأم مدرسة إذا أعددتها ... أعددت شعباً طيب الأعراق
الأم روض إن تعهده الحيا ... بالري أورق أيما إيراق
الأم أستاذ الأساتذة الأُلى ... شَغَلتْ مآثرهم مدى الآفاق[٣]

فهؤلاء الصفوة ربتهم أمهاتهم منذ نعومة أظفارهم على طاعة الله ـ عز وجل ـ ومرضاته، فتوافقت فطرة نقية، وتربية سوية، فنما الغرس واشتد عوده، ويأبى الغرس إلا أن يأتي ثمره، ومن ثم فعلى الرجل أن يتخير أماً صالحة لولده ولن يتثنى له ذلك إلا إذا اتسم هو بالصلاح أولاً، فالمجتمع لن يتأتى إلا من أسر تعرف ربها، ولن تقوم هذه الأسر إلا على آباء صالحين وأبناء ذوي فطر سوية، لأن الفطرة لها دورها في توجه الأفراد.

يقول الشيخ ياسر برهامي: قد كان هناك بقايا من الموحدين في ذلك العهد أمثال هذا الراهب في قصتنا فقعد إليه الغلام أثناء ذهابه لتعلم السحر فسمع كلامه فأعجبه، وهنا نرى أن الغلام رغم أنه يتلقى تعليماً مزدوجاً ويسمع كلاماً متناقضاً فالساحر يعلمه أن الملك ربه ولا رب غيره والراهب يعلمه أن الله

---

(١) العقيلة: السيدة المخدَّرة والزوجة الكريمة المعجم الوسيط ص ٦١٧، والأزد: تجمع قبائل عريقة باليمن، لسان العرب ٣ / ٧١.

(٢) مؤثل: مجموع ذو أصل، أو أي شيء جُمع له أصل، انظر لسان العرب ١١ / ٩.

(٣) عودة الحجاب ٢ / ١٩٩ – ٢١٢ باختصار طفيف.

ربه ولا رب سواه إلا أنه قد مال وأُعجب بكلام الراهب، ذلك أن الحق له رصيد عظيم في داخل النفس البشرية رصيد الفطرة التي فطر الله الناس عليها : ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفا فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴿٣٠﴾ ﴾ [الروم : ٣٠] .

ثم قال : وهذا الرصيد أعظم من وسائل الإعلام والإفساد والتوجيه والبث المباشر وأعتى القوى العسكرية وأسلحة الإرهاب، ولا تصح مقولة من يقول : "إن ما يبنيه الدعاة في سنة يهدمه أهل الباطل في ساعة بما عندهم من وسائل هائلة " يقصد بذلك اليأس من أثر التربية في التغيير وأن العلاج لا يكون إلا بتغيير قمة المجتمع ومركز القوة فيه، دون السعي الحثيث البطيء - فيما يظن - للتغيير من خلال تنشئة الأفراد وتربيتهم واحداً واحداً، مع أن الناظر في سيرة الأنبياء جميعاً وأتباعهم أيضاً يرى أن التغيير دائماً لا يكون بتغيير قمة المجتمع وإنما كان دائماً بتربية الأفراد وإيجاد الطائفة المؤمنة التي ينصر الله - عز وجل - بها دينه بالقرآن أو السُنن،فهذه المقولة خطأ بلا شك لمخالفتها سُنَّة الأنبياء والصالحين، إن ما يهدمه أهل الباطل في ساعة إنما هو البناء الهش الذي لا حقيقة له وإنما هو عيب البنائين وتقصيرهم في البناء، إن الحق لا يُهدم في نفوس المؤمنين الصادقين ولو ظل أهل الباطل يسعون لهدمه مدة الدنيا بأسرها، فلا تيأسوا يا دعاة الإسلام ولرُب غلام ممن تعلمونهم الدين ترونه يجلس بين أيديكم اليوم يكون به غداً نجاة الأمة وإنقاذها من الهلاك - بل ذلك الحاصل إن شاء الله - فاستمروا في الدعوة والبيان ولا ترهبوا أسلحة أهل الباطل وإن كثرت فـ ﴿ إن كيد الشيطان كان ضعيفا ﴾ [النساء: ٧٦][1] .وتخيروا ذوي الفطر السليمة ليستقيم لكم البنيان .

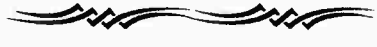

(١) قصة أصحاب الأخدود ص ١١٥- ١٧ ، باختصار .

الوقفة السادسة

[وكان إذا أتى الساحر مر بالراهب وقعد إليه فأتى الساحر ضربه] .

وفيها درسان :

الدرس الأول : إن للإيمان لحلاوة :

ها هو الغلام رغم أن الراهب لم يُغْرِه بأي مغريات يقعد إليه ويُقبل عليه رغم أن الساحر يضربه فما السر وراء ذلك ؟، إنها بشاشة الإيمان التي إذا خالطت القلوب فإنها تفعل فيها الأفاعيل.

لذا يجب على الدعاة إلى الله ـ عز وجل ـ في كل زمان ومكان أن ينتبهوا إلى أن المجتمعات تنقسم إلى قسمين بحسب أساس التربية : مجتمعات عقدية ومجتمعات عاطفية وكذا الدعوات عقدية وعاطفية فالمجتمعات والدعوات العقدية هى التي تربى أبناءها على معتقدات ثابتة حتى وإن كانت غير صحيحة [١]، وهذه المجتمعات والدعوات مجتمعات متماسكة متينة يضحِّى فيها الفرد بكل ما يملك فداءً لمعتقده لأنه وصل إلى الإيمان بما يعتقد، وهذه المجتمعات أو الدعوات أعدادها صغيرة ولكن تأثيرها خطير؛ وبخاصة إذا كانت تؤمن بثوابت دينية صحيحة لأن الدين الصحيح يتوافق مع الفطر السليمة.

أما المجتمعات أو الدعوات العاطفية فهي دائماً تلعب على عاطفة أتباعها وتثيرهم بلحن القول إلى غايات مرسومة وأهداف مدروسة معلومة، فتجد الفرد فيها لا يحكم على الأمور بضوابط الشرع؛ ولكن بما يستحسنه ويميل إليه، وهذا

(١) كالمجتمع الإسرائيلي يقوم على معتقد غير صحيح وهو أن أرض الميعاد من النيل إلى الفرات، وأن الأقصى بني على أنقاض هيكل سليمان، ولابد من هدم الأقصى لبناء الهيكل، وذلك شرط لنزول المسيح بزعمهم، ويسعون جاهدين لتحقيق ذلك.

المسلك يدمر هذه الدعوة والمحيطين بها، وأتباع هذه الدعوات كثير ولكن غثاء كغثاء السيل، يثورون لمشاهدة فيلم عن محنة للمسلمين، ويفرِّغون هذه الثورة بمظاهرة تنديد، أو توزيع ملصقات، أو بمرور الوقت تخبو هذه الثورة.

فلم لا نربي مجتمعاتنا على أصفي وأنصع عقيدة عرفتها البشرية ألا وهي عقيدة السلف محمد ﷺ وصحابته الكرام رضي الله عنهم وتابعيهم وتابعي تابعيهم بإحسان؟ ، أليس ذلك أولى من أن نربي مجتمعاتنا على عقائد إنما هي حثالات أفكار من ينسبون أنفسهم للإسلام والإسلام منهم براء ؟ وكذلك أولى من أن نربي مجتمعاتنا تربية عاطفية أصولها الأحاسيس والمشاعر، التي ما تلبث أن تخبو وتضمحل، وتتحول في معظم الأحيان إلى شجب، واستنكار، وتنديد، ورثاء بأشعار، ما أخافت عدواً، ولا حُررت بها الديار.

واعلم أن دعوة النَّبيّ ﷺ كانت عقائدية لا عاطفية؛ ولذلك كان الرجل يؤمن في أول النهار ويطلب الشهادة في آخره.

الدرس الثاني: وقتك حياتك :

تُرى لم كان الساحر يضرب الغلام ؟، إنه لم يكن يدري أنه يجالس الراهب، بل كان يضربه لتضييعه للوقت، فالساحر حريص كل الحرص ألا يُضيِّع وقته، فمعنى أنه يضرب للغلام ميعاداً محدداً وينتظره فيه ويعاقبه إن تأخر عنه أنه كان ضنيناً بوقته أن يضيع، ويُستفاد منه أنه كان منظَّماً في حاله فلا يدع وقته يضيع بغير فائدة، فهذا حال ساحر كافر بالله ينظم وقته ولا يهدره، ولا يضيعه فيما لا يفيد، حتى وهو في آخر عمره، ومعظم أهل الكفر في أيامنا هذه لهم نفس الحال حتى صاروا مضرب المثل في الحفاظ على الوقت، فتجد الواحد منا إذا عاتب أخاه على ميعاد ضربه فضيعه، رد عليه قائلاً: (هل أنت خواجه ؟) [١] .

هذا حال من لا يعرفون الله ، وإنما حرصوا على أوقاتهم طلباً لدنيا زائلة، أما

(١) وذلك لما نرى من حرص الإفرنج وأهل الغرب عموماً على أوقاتهم.

من ادعوا معرفة الله والإيمان به من أمة الإسلام وطلبوا جنات عدن ـ زعموا ـ فحالهم لا يرضى به إنسان، فأوقاتهم ضاعت هباءً منثوراً ما استفادوا منها في دنيا ولا آخرة، فهم محترفون في تضييع الأوقات، ويظنون أنهم يحسنون صنعاً.

أخي: إن العمر عزيز نفيس وقد بلغ من شأنه أن الله أقسم به جملة وتفصيلاً فأقسم بالعصر الذي هو الدهر، وأقسم بالليل والنهار وأقسم بالفجر والضحى، وفي تنوع القسم به من رب العالمين لفت الانتباه لعظيم شأنه، وجلال قدره، وسوء عاقبة من أهدره.

أخي: إنك لن تعي مدي خطورة الوقت إلا إذا نظرت إليه من جهتين:

الأولى: وقتُك أنت !!!.

عمرك ووقتك قرينان، فأنت ووقتك وجهان لعملة واحدة ظاهرها أنت وباطنها وقتك . فما أنت إلا أيامٌ معدودة وليال محدودة فكلما مضى من عمرك يوم فقد انقضى بعضك، فعجباً ممن لا يتفطن لذلك؛ ويفرح لزيادة سنِّه عام تلو عام، ويقيم لذلك احتفالاً وراء احتفال، وما جال بخاطره أنه يقترب من أجله وموعد موته عاماً من قبله عام، ولو انتبه لذلك لضاقت عليه الأرض بما رحبت.

قال ابن رجب: قيل لمحمد بن واسع كيف أصبحت ؟ ، قال: ما ظنك برجل يرتحل كل يوم مرحلة إلى الآخرة.

وقال الحسن: إنما أنت أيام مجموعة كلما مضى يوم مضى بعضك.

وقال بعض الحكماء: كيف يفرح بالدنيا مَنْ يومه يهدم شهره، وشهره يهدم سنته، وسنته تهدم عمره، كيف يفرح من يقوده عمره إلى أجله، وتقوده حياته إلى موته.

وقال الفضيل بن عياض لرجل: كم أتت عليك ؟، قال ستون سنة، قال: فأنت منذ ستين سنة تسير إلى ربك، يوشك أن تبلغ، فقال الرجل، ﴿ إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾ ، فقال الفضيل: أتعرف تفسيره؟، تقول: ﴿ إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾

فمن عرف أنه لله عبد وأنه إليه راجع، فليعلم أنه موقوف، ومن علم أنه موقوف فليعلم أنه مسئول، ومن علم أنه مسئول فليُعدَّ للسؤال جواباً ، فقال الرجل: فما الحيلة ؟ ، قال: يسيرة، قال: ما هي؟ ، قال: تحسن فيما بقي يغفر لك ما مضى ، فإنك إن أسأت فيما بقي أُخذت بما مضى وما بقي.

قال الحسن: لم يزل الليل والنهار سريعين في نقص الأعمار وتقريب الآجال، هيهات قد صحبا نوحاً وعاداً وثموداً وقروناً بين ذلك كثيراً، فأصبحوا قد أقدموا على ربهم ووردوا على أعمالهم، وأصبح الليل والنهار غضين جديدين لم يبلهما ما مرا به، مستعدَيْن لمن بقي بمثل ما أصابا به من مضى.

وقال: ابن آدم إنما أنت بين مطيتين يوضعانك، يوضعك الليل إلى النهار، والنهار إلى الليل؛ حتى يسلمانك إلى الآخرة، فمن أعظم منك يا ابن آدم خطراً.

وقال: الموت معقود بنواصيكم والدنيا تطوي من ورائكم.

قال داود الطائي: إنما الليل والنهار مراحل ينزلها الناس مرحلة مرحلة حتى ينتهى ذلك بهم إلى آخر سفرهم، فإن استطعت أن تُقدِّم في كل مرحلة زاداً لما بين يديها فافعل، فإن انقطاع السفر عن قريب ما هو، والأمر أعجل من ذلك فتزود لسفرك، واقض ما أنت قاض من أمرك، فكأنك بالأمر قد بغتك.

وكتب بعض السلف إلى أخ له: يا أخي يخيل لك أنك مقيم بل أنت دائب السير تساق مع ذلك سوقاً حثيثاً، الموت متوجه إليك، والدنيا تُطوي من ورائك، وما مضى من عمرك فليس بِكارٍّ عليك [١].

ومن وصايا لقمان: يا بني إن الناس قد تطاول عليهم ما يوعدون، وهم إلى الآخرة سراع يذهبون، وإنك قد استدبرت الدنيا منذ كنت واستقبلت الآخرة، وإن داراً تسير إليها أقرب إليك من دار تخرج منها [٢].

---

(١) جامع العلوم والحكم ص ٤٢٨، ٤٢٩ باختصار وتصرف.

(٢) الزهد لابن المبارك برقم ١٠٦٠ ، حلية الأولياء ٦ / ٣٢٠ ، وذم الدنيا برقم ٧٣ .

وقال ابن القيم: العبد من حين استقرت قدمه في هذه الدار فهو مسافر فيها إلى ربه ومدة سفره هي عمره الذي كُتب له، فالعمر هو مدة سفر الإنسان في هذه الدار إلى ربه، ثم قد جُعلت الأيام والليالي مراحل سفره، فكل يوم وليلة مرحلة من المراحل، فلا يزال يطويها مرحلة بعد مرحلة حتى ينتهي السفر [١].

ولذلك لما فهم السلف هذه الحقيقة كانوا أحرص ما يكونون على أوقاتهم.

قال ابن الجوزي: رأيت العادات قد غلبت الناس في تضييع الزمان وكان القدماء يحذرون من ذلك، قال الفضيل : أعْرِفُ من يعد كلامه من الجمعة إلى الجمعة. ودخلوا على رجل من السلف فقالوا: لعلنا شغلناك؟ فقال: أصدقكم ؟ كنت أقرأ فتركت القراءة لأجلكم.

وجاء رجل من المتعبدين إلى سرى السقطي فرأى عنده جماعة فقال: صرت مناخ البطالين ثم مضى ولم يجلس.

وقد كان جماعة قعوداً عند معروف فأطالوا فقال: إن ملك الشمس لا يفتر في سوقها أفما تريدون القيام ؟.

وممن كان يحفظ اللحظات عامر بن عبد قيس قال له رجل: قف أكلمك، قال: فأمسك الشمس.

وكان داود الطائي يستف الفتيت [٢] ويقول: بين سف الفتيت وأكل الخبز قراءة خمسين آية.

وكان عثمان الباقلاني دائم الذكر لله تعالى، فقال: إني وقت الإفطار أحس بروحي كأنها تخرج لأجل اشتغالي بالأكل عن الذكر، وأوصى بعض السلف أصحابه فقال : إذا خرجتم من عندي فتفرقوا لعل أحدكم يقرأ القرآن في طريقه، ومتى اجتمعتم تحدثتم [٣].

---

(١) طريق الهجرتين ص ١٧٦ .

(٢) أي يطحن الخبز ويستفه حتى لا يمضغه .

(٣) صيد الخاطر ص ٤٩٦، ٤٩٧ ، باختصار.

الثانية: الوقت أبٌ للعلم والعمل، وجدٌ للمال فمن فرط فيه حرم ذريته :

فمن ملك وقته أمكنه أن يتصرف فيه كيفما شاء، فمن استغله في طلب العلم أنتج علماً، وكان العلم من بنى الوقت، وإن استغله في عمل فإن كان من عمل الآخرة كان من العاملين وعمله أيضاً من أبناء الوقت، وإن استغله في عمل من أعمال الدنيا تصرف في نتاجه فعاد عليه بالمال، وبذا يُعلم أن المال حفيد للوقت، ولذا قيل من أنفق بعض وقته كان كمن أنفق بعض ماله لأن التضحية بالأصل تضحية بكل فرع نشأ عنه.

فإن علمت أن وقتك هو بعضك، وأنه أصل كل ما ينشأ عنك من خير أو شر، فاعلم أن إضاعته إضاعتك، وحفظه حفظك.

ولما كان حفظ الوقت عسيراً لأنه إن مر فلن يعود كما يقول الحسن البصرى: ما من يوم ينشق فجره إلا ينادي يا ابن آدم: أنا خلق جديد، وعلى عملك شهيد، فتزود مني فإني إذا مضيت لا أعود إلى يوم القيامة.

وقال الهروى: إن الوقت وحيٌ التقضّي (سريع الانقضاء)، أبيٌ الجانب، بطيء الرجوع [١].

وجب حفظه في ذريته من علم أو عمل أو مال، فمن لم يستفد من وقته في تحصيل واحد أو أكثر من هذه الثلاث ما حفظ وقته.

وانتبه إلى أن لكل واحد منها وجهين، وجه حميد، ووجه قبيح، فمن التزم حصول الحميد فقد حافظ على وقته، ونال ما يريد، ومن التزم حصول القبيح فقد أهدر عمره فيما لا يفيد، ونال حسرة في العاجل والآجل عندما يصبح الخبر عياناً.

وإليك البيان:

فالعلم علمان: علم بالله وشرعه وما يفيد الناس في صلاح دينهم ودنياهم،

---

(١) مدارج السالكين ٣ / ٥٤ .

وهذا صاحبه مأجور في الدنيا؛ لأنه سيعلم ما به يصلح دينه ودنياه، وفي الآخرة له من الله ـ عز وجل ـ الأجر الجزيل، ويكفيك في ذلك ما ورد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (**من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها لا أقول آلم حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف**) [١] وقس على ذلك كل علم يقربك من ربك فإن لك به نعمة في الدنيا وأجر جزيل في الآخرة.

وعلم ساقط مرذول يباعدك عن ربك كالعلم بأخبار الفن والكُرة وغيرها مما تفنى فيه الأعمار، وتخرب بسببه الديار، فمن الناس من يعلم عن بعض الفنانين والمتهتكين ما لا يعلمه عن أبيه من النسب، فعالم هذا والمنشغل به قد أهدر عمره بدداً، وضاعت أوقاته سدىً.

يقول ابن مسعود رضي الله عنه: إذا مر يوم لم أقتبس هدى ولم أستفد علماً فما ذاك من عمرى.

لذا كان للسلف حال عجيب في تحصيل العلم نكتفي هنا بمثال:

قال ابن أبي حاتم: سمعت المزني يقول: قيل للشافعي: (كيف شهوتك للعلم؟)، قال: أسمع بالحرف ـ أي بالكلمة ـ مما لم أسمعه، فتود أعضائي أن لها أسماعاً تتنعم به ما تنعمت به الأذنان، فقيل له: كيف حرصك عليه؟ قال: حرص الجموع المنوع في بلوغ لذته للمال، فقيل له: فكيف طلبك له؟، قال: طلب المرأة المضلة ولدها ليس لها غيره [٢].

والعمل أيضاً عملان: عمل في مرضاة الله من صلاة وصيام وزكاة وحج وبر والدين وسعى على الرزق لكف النفس وجمع للمال من حله لإنفاقه في طاعة.

---

(١) رواه الترمذي برقم ٢٩١٠، وقال حديث حسن صحيح غريب، والبيهقي في شعب الإيمان برقم ١٩٨٣، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم ٦٤٦٩، وفي السلسلة الصحيحة برقم ٣٣٢٦.

(٢) علو الهمة ص ١٤٧. وانظر من ص ١٤١ – ٢٠٧ لتعرف مدى حرص السلف على أوقاتهم في طلب العلم ومدى علو همتهم في ذلك.

وعمل في معصية الله من لهو ولعب ومزاح وتحصيل للمال من حرام وبعثرته في عربدة ومجون.

قال ابن مسعود رضي الله عنه : ما ندمت على شيء كندمي على يوم غربت شمسه، نقص فيه أجلي ولم يزد فيه عملي.

وإليك طرفاً مما كان عليه السلف في الحفاظ على وقتهم في الطاعة:

كان أبو بكر بن عياش يقول: لو سقط من أحدكم درهم لظل يومه يقول : إنا لله ذهب درهمي،وهو يذهب عمره ولا يقول : ذهب عمرى، وقد كان لله أقوام يبادرون الأوقات، ويحفظون الساعات، ويلازمونها بالطاعات [١].

قال الحسن: من نافسك في دينك فنافسه، ومن نافسك في دنياه فألقها في نحره .وقال وهيب بن الورد: إن استطعت أن لا يسبقك إلى الله أحد فافعل، وقال الشيخ شمس الدين محمد بن عثمان التركستاني : ما بلغني عن أحد من الناس أنه تعبد عبادة إلا تعبَّدت نظيرها وزدت عليه. وقال أحد العباد : لو أن رجلاً سمع برجل هو أطوع لله منه فمات ذلك الرجل غمَّاً، ما كان ذلك بكثير، وقيل لنافع: ما كان ابن عمر يصنع في منزله ؟ قال: الوضوء لكل صلاة والمصحف بينهما [٢].

قال ابن الجوزي : رأيت عموم الخلائق يدفعون الزمان دفعاً عجيباً، إن طال الليل فبحديث لا ينفع، أو بقراءة كتاب فيه غزاة وسمر، وإن طال النهار فبالنوم، وهم في أطراف النهار على دجلة أو في الأسواق، فشبهتهم بالمتحدثين في سفينة وهي تجري بهم وما عندهم خبر، ورأيت النادرين قد فهموا معنى الوجود فهم في تعبئة الزاد والتأهب للرحيل، إلا أنهم يتفاوتون، وسبب تفاوتهم قلة العلم وكثرته بما يَنْفَق في بلد الإقامة، فالمتيقظون منهم يتطلعون إلى الأخبار بالنافق[٣]

---

(١) الياقوتة لابن الجوزي ص ٥٧ .

(٢) علو الهمة ص ٢٠٩ . وانظر ص ٢٠٩- ٢١٦ لتعرف مدى تقصيرنا.

(٣) أي الذي يكثر فيه البيع والشراء.

هناك فيستكثرون منه فيزيد ربحهم، والغافلون منهم يحملون ما اتفق[١] وربما خرجوا لا مع خفير[٢]، فكم ممن قد قُطِعَت عليه الطريق فبقى مفلساً، فالله الله في مواسم العمر، والبدار قبل الفوات، واستشهدوا العلم، واستدلوا الحكمة، ونافسوا الزمان، وناقشوا النفوس، واستظهروا بالزاد[٣].

والمال أيضا على ضربين: غاية ووسيلة فمن اتخذه غاية سلك لجمعه كل طريق، وباع في تحصيله الغالي والنفيس، وانشغل بذلك جمعاً، وعدًّا، وخوفاً على الفراق وهلعاً، حتى صار له عبداً، فتعس عبد الدرهم والدينار، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش.

ومن علم أنه وسليه احترز في جمعه بما يحل وأنفقه فيما يرضى ربه بغير بذخ ولا إسراف ولا مخيلة، فهان في نفسه، لأنه يريد منه البُلغة، وما زاد فهو نافلة، لا يفرح إن بقيت، ولا يحزن إن فُقدت، وتلمح ذلك في سير من سلف فقد جهز عثمان رضي الله عنه جيش العسرة وهو فرح مسرور، وتحلل عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه من ماله ست مرات لما علم أنه سيدخل الجنة حبواً بسبب ماله.

فإن أردت أن تحفظ وقتك فلا سبيل إلى حفظه إلا في علم نافع ، أو عمل صالح ، أو مال ، هو وسيلة لا غاية.

قال ابن القيم: السَنة شجرة والشهور فروعها، والأيام أغصانها، والساعات أوراقها، والأنفاس ثمرها، فمن كانت أنفاسه في طاعة فثمرة شجرته طيبة، ومن كانت في معصية فثمرته حنظل، وإنما يكون الجداد[٤] يوم المعاد فعند الجداد يتبين حلو الثمار من مرها[٥].

---

(١) ما استطاعوا حمله وإن لم يكن فيه فائدة.

(٢) أي بغير حراسة في مكان موحش.

(٣) صيد الخاطر ص ١٥٥، ١٦٦ .

(٤) الجداد: الحصاد .

(٥) الفوائد ص ٢٢٥ .

قال أحمد شوقي :

دقـــات قلب المرء قـــائلة له : إن الحـــيـــاة دقـــائق وثوان
فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها فـالذكـــر للإنســـان عـــمـــرٌ ثان

قال ابن الجوزي: من عجائب ما أرى من نفسي ومن الخلق كلهم الميل إلى الغفلة عما في أيدينا، مع العلم بقصر العمر، وأن زيادة الثواب هناك بقدر العمل ههنا. فيا قصير العمر اغتنم يومي مني وانتظر ساعة النفر وإياك أن تشغل قلبك بغير ما خُلق له، واحمل نفسك على المرِّ، واقمعها إذا أبت، ولا تُسرِّح لها في الطول، فما أنت إلا في مرعى. وقبيح بمن كان بين الصفين أن يتشاغل بغير ما هو فيه [١]

وقال ابن القيم: فكل يوم وليلة مرحلة من المراحل، فلا يزال يطويها مرحلة بعد مرحلة حتى ينتهي السفر (أى: الحياة)، فالكَيِّس الفطن هو الذي يجعل كل مرحلة نصب عينيه فيهتم بقطعها سالماً غانماً، فإذا قطعها جعل الأخرى نصب عينيه،ولا يطول عليه الأمد، فيقسو قلبه،ويمتد أمله، ويُحصر بالتسويف، والوعد والتأخير والمطل، بل يعد عمره تلك المرحلة الواحدة، فيجتهد في قطعها بخير ما بحضرته؛ فإنه إذا تيقن قصرها وسرعة انقضائها هان عليه العمل، فطوعت له نفسه الانقياد إلى التزويد، فإذا استقبل المرحلة الأخرى من عمره استقبلها كذلك، فلا يزال هذا دأبه حتى يطوي مراحل عمره كلها، فيحمد سعيه ويبتهج بما أعده ليوم فاقته وحاجته، فإذا طلع صبح الآخرة، وانقشع ظلام الدنيا، فحينئذ يحمد سراه، وينجاب عنه كراه، فما أحسن ما يستقبل يومه وقد لاح صباحه واستبان فلاحه[٢].

ولن يستقيم لك ذلك إلا إذا انصرفت عن صحبة البطالين، فإن لم تقدر فعوِّد نفسك التغافل عنهم حال وجودهم بما يفيدك، وليكن حالك معهم كحال ابن

(١) صيد الخاطر ص ٤١٣- ٤١٤ .
(٢) طريق الهجرتين ص ١٧٦ .

الجوزي إذ يقول :أعوذ بالله من صحبة البطالين لقد رأيت خلقاً كثيراً يجرون معي فيما قد اعتاده الناس من كثرة الزيارة؛ ويُسمون ذلك التردد خدمة، ويطلبون الجلوس ويجرون فيه أحاديث الناس وما لا يعني وما يتخلله غِيبَة، وهذا شيء يفعله في زماننا كثير من الناس، وربما طلبه المزور وتشوّق إليه واستوحش من الوحدة وخصوصاً في أيام التهاني والأعياد؛ فتراهم يمشي بعضهم إلى بعض، ولا يقتصرون على الهناء والسلام بل يمزجون ذلك بما ذكرته من تضييع الزمان، فلما رأيت أن الزمان أشرف شيء والواجب انتهاؤه بفعل الخير كرهت ذلك وبقيت منهم بين أمرين :

إن أنكرت عليهم وقعت وحشة لموضع قطع المألوف، وإن تقبلته منهم ضاع الزمان فصرت أدافع اللقاء جهدي فإذا غلب قصرتُ في الكلام لأتعجل الفراق، ثم أعددت أعمالاً تمنع من المحادثة لأوقات لقائهم لئلا يمضي الزمان فارغاً فجعلتُ من المستعد للقائهم قطع الكاغد (الورق)، وبرى الأقلام، وحزم الدفاتر فإن هذه الأشياء لابد منها، ولا تحتاج إلى فكر وحضور قلب، فأرصدتها لأوقات زيارتهم (حتى لا) يضيع شيء من وقتي، نسأل الله ـ عز وجل ـ أن يعرفنا أوقات العمر وأن يوفقنا لاغتنامه ولقد شاهدت خلقاً كثيراً لا يعرفون معنى الحياة، فمنهم من أغناه الله عن التكسب بكثرة ماله؛ فهو يقعد في السوق أكثر النهار ينظر إلى الناس، وكم تمر به من آفة ومنكر، ومنهم من يخلو بلعب الشطرنج، ومنهم من يقطع الزمان بكثرة الحوادث (أي الحديث في الحوادث الجارية) من السلاطين والغلاء والرخص إلى غير ذلك، فعلمتُ أن الله تعالى لم يُطْلِع على شرف العمر ومعرفة قدر أوقات العافية إلا من وفقه وألهمه اغتنام ذلك ﴿ وما يُلقَّاها إلاَّ ذُو حظٍّ عظيمٍ ﴾ [فصلت : ٣٥] [١].

وقال: فكم يُضيِّع الآدمي من ساعات يفوته فيها الثواب الجزيل وهذه الأيام

---

(١) صيد الخاطر ص ٢٤٠ .

مثل المزرعة فكأنه قيل للإنسان كلما بذرت حبة أخرجنا لك ألف كر، فهل يجوز للعاقل أن يتوقف عن البذر ويتوانى ؟ .

والذي يعين على اغتنام الزمان الإنفراد والعزلة مهما أمكن والاختصار على السلام أو حاجة مهمة لمن يَلْقى وقلة الأكل فإن كثرته سبب النوم الطويل وضياع الليل، ومن نظر في سير السلف وآمن بالجزاء بان له ما ذكرته [١].

ساق أبو نعيم في الحلية بسنده عن إبراهيم بن أدهم قال: بلغني أن الحسن البصري رأى النَّبيّ ﷺ في منامه ، فقال: يا رسول الله عظنى، قال: من استوى يوماه فهو مغبون، ومن كان غده شراً من يومه فهو ملعون، ومن لم يتعاهد النقصان من نفسه فهو في نقصان، ومن كان في نقصان فالموت خير له [٢].

(١) السابق ص ٤٩٧ .

(٢) حلية الأولياء ٨ / ٣٥ .

الوقفة السابعة

[فشكا ذلك إلى الراهب فقال: "إذا خشيت الساحر فقل : حبسني أهلي، وإذا خشيت أهلك فقل: حبسني الساحر "] .

وفيها درسان:

الدرس الأول: وجوب طلب العلم الشرعي :

يقول الشيخ ياسر برهامي: ليتأمل طلاب العلم هذا الحرص من الغلام على طلب العلم؛ رغم الضرر الذي يتعرض له من أهله،ومن الساحر، ويحضر الدرس ويواظب عليه ولو ضُرب، فأين طلاب العلم من هذا؟، أتى علينا وقت تُتهم فيه الدعوة بأنها ليست إلا طلب علم، فإذا نحن الآن لا نجد طلاب علم صادقين في الطلب ! لماذا يُعرِض الكثير عن الدرس؟؛ رغم أنه لا يضربهم أحد ولا يؤذيهم، وإنما هو الانشغال بالدنيا، فاحذر يا أخي من ذلك،فإن الإعراض عن طلب العلم يستجلب إعراض الرب سبحانه عنك، فقد ورد عن أبي واقد الحارث بن عوف رضي الله عنه أن رَسُول الله ﷺ بينما هو جالس في المسجد والناس معه إذ أقبل ثلاثة نفر، فأقبل اثنان إلى رَسُول الله ﷺ وذهب واحد فوقفا على رَسُول الله ﷺ ، فأما أحدهما فرأى فرجة في الحلقة فجلس فيها،وأما الآخر فجلس خلفهم،وأما الثالث فأدبر ذاهباً. فلما فرغ رَسُول الله ﷺ قال: **« ألا أخبركم عن النفر الثلاثة؟ أما أحدهم فأوى إلى الله فآواه الله، وأما الآخر فاستحيا، فاستحيا الله منه، وأما الآخر فأعرض، فأعرض الله عنه »** [1]، فالثالث أعرض عن مجلس العلم ، فأعرض الله عنه .

---

(١) رواه البخاري برقم ٦٦، ٤٦٢ ، ومسلم برقم ٢٦ / ٢١٧٦ ، والترمذي برقم ٢٧٢٤ ، وابن حبان برقم ٨٦ ، وأحمد برقم ٢١٩٥٧ ، والبيهقي في سُننه الكبرى برقم ٥٦٨٣ ، ورياض الصالحين برقم ١٤٤٩ ، وما قبله من قصة أصحاب الأخدود ص ١٨ .

الدرس الثاني: قد يجوز الكذب أحياناً :

جعل الله ـ عز وجل ـ الصدق من شيم الأنبياء فقال عن إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٤١) ﴾ [مريم : ٤١] ، وقال واصفاً إسماعيل عليه السلام : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا (٥٤) ﴾ [مريم : ٥٤] ،وقال عن إدريس عليه السلام : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٥٦) ﴾ [مريم : ٥٦] ، وكان النَّبيّ ﷺ موصوفاً بين بني قومه حتى قبل مبعثه بالصادق الأمين ، وطالبنا الله ـ عز وجل ـ به ، فقال جل شأنه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩) ﴾ [التوبة : ١١٩] .

وحض النَّبيّ ﷺ على الصدق وأعلى من شأن أهله ونفَّر من الكذب وحقَّر من شأن أهله في أكثر من حديث، فقد ورد عن ابن مسعود رضي الله عنه قال :قال رَسُول الله ﷺ : « **إن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدُق حتى يُكتب عند الله صدِّيقاً؛ وإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يُكتب عند الله كذاباً** » (١).

وعن أبي سفيان صخر بن حرب في حديثه الطويل في قصة هرقل، قال هرقل: فماذا يأمركم (يعني النَّبيّ ﷺ)، قال أبو سفيان: قلت يقول: « **اعبدوا الله وحده لا تشركوا به شيئاً، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة** » (٢).

---

(١) رواه البخاري برقم ٥٧٤٣ ،ومسلم برقم ١٠٣ / ٢٦٠٧ ، وأبو داود برقم ٤٩٨٩ ، والترمذي برقم ١٩٧١ ، وابن حبان برقم ٢٧٤ ، والطبراني في الكبير برقم ٨٥١٨ ، ووالسيوطي في الجامع الصغير برقم ٢٠٤٤ ، وكنز العمال برقم ٦٨٥٩ ، ورياض الصالحين برقم ٥٤، ١٥٤٢ .

(٢) قطعة من حديث طويل رواه البخاري برقم ٧ ، ومسلم برقم ٧٤ / ١٧٧٣ ، والبيهقي في الكبرى برقم ١٨٣٨٨ ، وأحمد برقم ٢٣٧٠ ، والنسائي في الكبرى برقم ١١٠٦٤ ، وابن أبي شيبة برقم ٣٣٧٩٢ ، ورياض الصالحين برقم ٥٦، ٣٢٧ .

وعن أبي محمد الحسن بن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنهما قال حفظت مِنْ رَسُول الله ﷺ : « **دع ما يريبك إلى ما لا يريبك ؛ فإن الصدق طمأنينة ، والكذب ريبة** » (١).

عَنْ عَبْد الله بْن عَمْرو رضي الله عنه أنه قَالَ: قيلَ لِرَسُول الله ﷺ : أيُّ النَّاس أَفْضَلُ قَالَ : « **كُلُّ مَخْمُومِ الْقَلْبِ، صَدُوقِ اللِّسَانِ** » . قَالُوا: صَدُوقُ اللِّسَانِ، نَعْرِفُهُ. فَمَا مَخْمُومُ الْقَلْبِ؟ ، قَالَ « **هُوَ التَّقِيُّ النَّقِيُّ ، لاَ إِثْمَ فِيهِ وَلاَ بَغْيَ وَلاَ غِلَّ وَلاَ حَسَدَ** » (٢).

وجعل النَّبيّ ﷺ الكذب من علامات النفاق العملي فقد ورد عن عبد الله ابن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: « **أربع من كُنَّ فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا اؤتمن خان، وإذا حدَّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر** »(٣)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رَسُول الله ﷺ قال: « **آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان** » (٤).

وجعل عقوبة من يكذب بغير حاجة أن يمقته الله فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن

---

(١) رواه الترمذي برقم ٢٦٣٧ وصححه ، والحاكم برقم ٤٤ / ٧٠٤٦ وصححه، والنسائي برقم ٥٧١٠ ، والسيوطي في الجامع الصغير برقم ٤٢١٣ وصححه، وكنز العمال برقم ٧٢٩٦ ، ورياض الصالحين برقم ٥٥ ، وصححه الألباني في سُنن الترمذي برقم ٢٥١٨ ، وفي صحيح الجامع الصغير برقم ٣٣٧٨ ، وفي مشكاة المصابيح برقم ١٥ / ٢٧٧٣ .

(٢) رواه ابن ماجة برقم ٤٢١٦ ، والبيهقي في شعب الإيمان برقم ٦٦٠٤ ، وكنز العمال برقم ٧٨٣ ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم ٩٢٨ ، وفي سُنن ابن ماجة برقم ٤٢١٦ .

(٣) رواه البخاري برقم ٣٤، ٢٣٢٧، ٣٠٠٧ ، ومسلم برقم ١٠٦ / ٥٨ ، وأبو داود برقم ٤٦٨٨ ، والنسائي برقم ٥٠١٨ ، والترمذي برقم ٢٧٦٦ ، والجامع الصغير برقم ٩١٦ ، وكنز العمال برقم ٨٤٨ ، ورياض الصالحين برقم ٦٩٠، ١٥٤٣ .

(٤) رواه البخاري برقم ٣٣، ٢٥٣٦، ٢٥٩٨، ٢٧٤٤ ، ومسلم برقم ١٠٧ / ٥٩ ، والترمذي برقم ٢٧٦٦ ، والسيوطي في الجامع الصغير برقم ٢٥ ، ورياض الصالحين برقم ١٩٩، ٦٨٩ .

رسول الله ﷺ قال: « **ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم** (قال أبو معاوية: ولا ينظر إليهم) **ولهم عذاب أليم: شيخ زان، وملك كذاب، وعائل مستكبر** »(١).

وحذر النَّبيّ ﷺ من الكذب حتى في المزاح فعن بهز بن حكيم قال: حدثني أبي، عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ويلٌ للذي يحدِّث فيكذب ليضحك به القوم، ويلٌ له، ويلٌ له** »(٢).

بل نهى النَّبيّ ﷺ عن الكذب فيما هو أدق من ذلك في الرؤى و الأحلام وجعله من أعظم الافتراء فعن ابن عمر رضي الله عنهما أن النَّبيّ ﷺ قال: «**أفرى الفرى أن يُرى الرجل عينيه ما لم تريا**» (٣).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النَّبيّ ﷺ قال: «**من تحلَّم بحلم لم يره كُلِّف أن يعقد بين شعيرتين، ولن يفعل، ومن استمع إلى حديث قوم، وهم له كارهون، أو يفرُّون منه، صُبَّ في أذنه الآنك يوم القيامة، ومن صوَّر صورة عُذِّب، وكُلِّف أن ينفخ فيها، وليس بنافخ**» (٤).

ولكن قد يجوز الكذب أحياناً لمصلحة شرعية راجحة وهذا ما أوضحه الإمام النووي حين قال: وأما المستثنى منه (أي الكذب) فقد روينا في صحيحي البخاري ومسلم، عن أُمّ كلثوم رضي الله عنها؛ أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول:« **لَيْسَ**

---

(١)رواه مسلم برقم /١٧٢ ١٠٧ ، وأحمد برقم ١٠٢٣٢ ، والطبراني في الكبير برقم ٤٩٢ ، والبيهقي في شعب الإيمان برقم ٥٤٠٥ ، وسنن النسائي الكبرى برقم ٧١٣٨ ، والجامع الصغير برقم ٣٥٤١ ، وكشف الخفاء برقم ١٠٤٠ ، وكنز العمال برقم ٤٣٩٣٥ ، ورياض الصالحين برقم ٦١٧، ١٨٥٢ .

(٢)رواه أبو داود برقم ٤٩٩٠ ، والترمذي برقم ٢٤١٧ وحسنه، والسيوطي في الجامع الصغير برقم ٩٦٤٨ وصححه، وكشف الخفاء برقم ٢٩٧٥ ، وكنز العمال برقم ٨٢١٥ ، وحسنه الألباني في سنن أبي داود برقم ٤٩٩٠ ، وفي سنن الترمذي برقم ٢٣١٥ ، وفي صحيح الجامع الصغير برقم ٧١٣٦ .

(٣)رواه البخاري برقم ٦٦٣٦ ، والجامع الصغير برقم ٢٤٧٩ ، ورياض الصالحين برقم ١٥٤٥ .

(٤)رواه البخاري برقم ٦٦٣٥ ، والترمذي برقم ٢٣٨٥ ، وابن ماجة برقم ٣٩١٦ ، وكنز العمال برقم ٤١٤٥٧ ، ورياض الصالحين برقم ١٥٤٤ .

الكَذَّابُ الَّذي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ فَيَنْمي خَيْراً أَوْ يَقُولُ خَيْراً »[١] ، هذا القدر في صحيحيهما. وزاد مسلم في رواية له: قالت أُمّ كلثوم: ولم أسمعه يُرخِّصُ في شيء مما يقول الناس إلا في ثلاث ـ يعني: الحرب، والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل امرأته والمرأة زوجها. فهذا حديث صريح في إباحة بعض الكذب للمصلحة، وقد ضبط العلماءُ ما يُباح منه، وأحسنُ ما رأيتُه في ضبطه، ما ذكرَه الإمامُ أبو حامد الغزالي فقال: الكلامُ وسيلةٌ إلى المقاصد، فكلُّ مقصودٍ محمودٍ يُمكن التوصلُ إليه بالصدق والكذب جميعاً، فالكذبُ فيه حرامٌ لعدم الحاجة إليه، وإن أمكنَ التوصل إليه بالكذب ولم يمكن بالصدق فالكذبُ فيه مباحٌ إن كان تحصيل ذلك المقصود مباحاً، وواجبٌ إن كان المقصود واجباً، فإذا اختفي مسلم من ظالم وسأل عنه: وجبَ الكذبُ بإخفائه، وكذا لو كان عندَه أو عندَ غيره وديعة وسأل عنها ظالمٌ يُريدُ أخذَها وجبَ عليه الكذب بإخفائها، حتى لو أخبرَه بوديعةٍ عندَه فأخذَها الظالمُ قهراً، وجبَ ضمانُها على المُودَع المُخبِر، ولو استحلفَه عليها لزمَه أن يَحلفَ ويورِّي في يمينه، فإن حلفَ ولم يورِّ، حنثَ على الأصحّ، وقيل لا يحنثُ، وكذلك لو كان مقصودُ حَرْبٍ أو إصلاحِ ذاتِ البين أو استمالة قلب المجني عليه في العفو عن الجناية لا يحصل إلا بكذب، فالكذبُ ليس بحرام، وهذا إذا لم يحصل الغرضُ إلا بالكذب، والاحتياطُ في هذا كلّه أن يورّي؛ ومعنى التورية أن يقصدَ بعبارته مقصوداً صحيحاً ليس هو كاذباً بالنسبة إليه، وإن كان كاذباً في ظاهر اللفظ، ولو لم يقصد هذا بل أطلق عبارةَ الكذب فليس بحرام في هذا الموضع.

قال أبو حامد الغزالي: وكذلك كل ما ارتبط به غرضٌ مقصودٌ صحيح له أو

---

(١) رواه البخاري برقم ٢٥٤٦ ، ومسلم برقم ١٠١ / ٢٦٠٥ ، وأحمد برقم ٢٧٣١٣ ، وابن حبان برقم ٥٧٣٣ ، والطبراني في الكبير برقم ١٨٨ ، والبيهقي في شعب الإيمان برقم ١١٠٩٦ ، والنسائي في سُننه الكبرى برقم ٨٦٤ ، والجامع الصغير برقم ٧٥٨١ ، وكنز العمال برقم ٨٢٥٢ ، ورياض الصالحين برقم ٢٤٩ .

لغيره، فالذي له مثلُ أن يأخذَه ظالمٌ ويسألَه عن ماله ليأخذَه فله أن ينكرَه، أو يسألَه السلطانُ عن فاحشةٍ بينَه وبينَ الله تعالى ارتكبَها فله أن ينكرَها ويقول ما زنيتُ، أو ما شربتُ مثلاً، وقد اشتهرتِ الأحاديث بتلقين الذين أقرّوا بالحدود الرجوع عن الإقرار.

وأما غرضُ غيره، فمثل أن يُسأَلَ عن سرّ أخيه فينكرَهُ ونحو ذلك.

وينبغي أن يُقابِلَ بين مَفسدةِ الكذب والمفسدةِ المترتبة على الصدق؛ فإن كانت المفسدةُ في الصدق أشدّ ضرراً فله الكذبُ، وإن كان عكسُه، أو شكّ، حَرُمَ عليه الكذبُ؛ ومتى جازَ الكذبُ فإن كان المبيحُ غرضاً يتعلّقُ بنفسه فيستحبّ أن لا يكذبَ، ومتى كان متعلقاً بغيره لم تجز المسامحةُ بحقّ غيره؛ والحزمُ تركه في كل موضعٍ أُبيحَ إلا إذا كان واجباً.

واعلم أن مذهبَ أهل السُّنَّة أن الكذبَ هو الإخبار عن الشيء، بخلاف ما هو، سواء تعمدتَ ذلك أم جهلته، لكن لا يأثمُ في الجهل وإنما يأثمُ في العمد، ودليلُ أصحابنا تقييد النَّبيّ ﷺ "**مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّداً فَلْيَتَبَوأ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**" (١).

ويستفاد من ذلك: جواز الكذب لتحصيل العلم الشرعي؛ الذي به يستقيم الدين، ويتعرف الإنسان به على رب العالمين، فإن حال بين المرء وبين تحصيل هذا العلم أحد، حُق له أن يكذب عليه في سبيل تحصيله لذلك العلم، وفي قصتنا رخَّص الراهب للغلام بالكذب لأجل مصلحتين: الأولى: تفادي الأذى الواقع عليه من جراء الضرب، الثانية: تحصيل العلم الشرعي.

وإن استخدم التعريض والتورية من غير كذب كان أولى كما قيل: إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب.

---

(١) رواه البخاري برقم ١٢٢٩ ومسلم برقم ٣ / ٣، وأبو داود برقم ٣٦٥١، والترمذي برقم ٢٧٩٦، وابن ماجة برقم ٣٧، وما قبله من الأذكار للنووي ص ٥١٥، ٥١٦.

الوقفة الثامنة

[فبينما هو على ذلك إذ أتى على دابة عظيمـــة قد حبست الناس، فقال : "اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل ؟"] .

وفيها درس : وجوب التمييز بين الحق والباطل:

إذا عُرض على الإنسان حق وباطل وجب عليه أن يستفرغ جهده في التمييز بينهما ليتعرف على الحق فيتبعه والباطل فيجتنبه، وها هو غلامنا يريد أن يستبين أمر الراهب والساحر فكل منهما يؤكد له أن الحق معه، وكلاهما له حجته ولكن أيهما على صواب ؟ ، فلما سنحت له الفرصة أراد أن يميز بين الغث والثمين فقال: اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل ؟ فبدا له أن يحكِّم الواقع فيما حاك في صدره وهذا المسلك قد يكون صحيحاً عند اندثار العلم وانعدام أهله، فلما صدقت نيته بلغه الله ـ عز وجل ـ ما أراد، وحكم له حكماً فصلاً ميز به بين الحق والباطل، أما في حال وفرة العلم ووجود أهل العلم الثقات فيجب الرجوع إليهم في التمييز بين ما اشتبه على الناس، ويجب أن يصدر الواحد منا عن رأيهم طالما أنه يوافق الكتاب والسُّنَّة وذلك مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : ٤٣] .

الوقفة التاسعة

[فأخذ حجراً فقال: "اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضي الناس"، فرماها فقتلها ومضى الناس] .

وفيها درسان :

الدرس الأول: اللسان ينطق بما يستقر في القلب :

قيل: "القلوب أوعية والألسنة مغارفها" فاللسان ينطق بما يستقر في القلب، وكل إناء بما فيه ينضح، ولذا تجد الغلام رغم تحيره بين الراهب والساحر، لكنه عندما أراد معرفة الحق؛ بدأ بدعاء الله وهذا مما تعلمه من الراهب، ثم قدم الراهب في الذكر وهذا دليل على أن قلبه كان مائلاً إلى حال الراهب أكثر من ميله إلى الساحر.

وفي ذلك يقول الشيخ ياسر برهامي: في هذا الجزء من القصة نرى أثر الازدواج في منهج التلقي عند الغلام وهذا هو الذي أحدث له نوعاً من الاضطراب والتردد بين المنهجين وإن كان واضحاً ميله للمنهج الحق من عدة نقاط:

أولها : أنه فزع إلى الدعاء والتضرع إلى الله متوسلاً إليه بإلوهيته ليبين له أيُ الأمرين أفضل ولا شك أن هذا الأمر إنما تعلمه من الراهب لا من الساحر.

والدعاء سلاح من أسلحة المؤمنين ومن أعظم أسباب نصرهم وفوق أنه مأمور به شرعاً كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر : ٦٠] .

فهو يوافق حاجة فطرية ضرورية وهي شعوره بالفقر والحاجة والعجز عن المعرفة وعن القدرة معاً إلا ما هُدي إليه وأُعين عليه وهو بالضرورة يلجأ في دعائه

إلى « فوق » وهذا من أوضح الأدلة الفطرية على علو الله وفوقيته على خلقه.

ثانيها: أنه في دعائه طلب ما يحبه الله « اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك » فهو إذن يبحث عما يحبه الله ـ عز وجل ـ وهذا أيضاً بلا شك مما تعلمه من الراهب لا من الساحر.

وهذا ينبهنا إلى أمر عظيم الشأن في التربية وهي أنه يلزم أن يُربي الأبناء على الحب: حب الله ـ عز وجل ـ وحب رسوله ﷺ وحب طاعته وأن تكون همة الإنسان مصروفة إلى البحث عن ذلك وأن يكون هو الميزان الذي توزن به الأمور.

والحب روح العبادة وبه يجد الإنسان أعظم نعيم في هذه الدنيا، وهذا الأمر يسد فاقة القلب وضرورته التي لا يسدها سواه فإن القلوب فطرت على الميل إلى الله، فالحنيف هو المائل إلى الله المعرض عن غيره كما قال: ﴿ **أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ** ﴾ [الرعد : ٢٨]، وقال تعالى: ﴿ **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا** ﴾ [الروم :٣٠]، فالقلوب لا تستقر ولا تستريح إلا بحب الله وحب من يحبه وحب ما يحبه من الطاعات والأعمال.

ثالثها: أنه قدم في كلامه أمر الراهب على أمر الساحر فقال: « إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر » وهذا يدل دلالة واضحة على ميله إلى أمر الراهب.

رابعها: أنه سعى لمصلحة الناس وخيرهم فهو يدعو الله ليزول عنهم خطر ذلك الحيوان الذي أفزعهم وسد عليهم طريقهم، وهذا الأمر إنما حصل له من الراهب لا من الساحر فإن الساحر إنما يعلمه كيف يكيد وكيف يفرق بين المرء وزوجه ويعلمه ما يضر ولا ينفع كما أخبر الله عنهم: ﴿ **وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ** ﴾ [البقرة : ١٠٢]، فلا نفع في السحر مطلقاً أما الإسلام فهو يعلم أتباعه حب الخير للخلق في دينهم ودنياهم كيف لا ؟، والرسل هم أنصح الخلق للخلق وقولهم دائماً ﴿ **وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ** ﴾ [الأعراف : ٦٨]، وأتباعهم هم خير الناس للناس.

وهذا الأمر أوضح ما يكون في أُمَّة محمد ﷺ الذي قال : أنتم خير الناس للناس تدخلونهم الجنة في السلاسل »[١] حديث صحيح فأمر الجهاد الذي قد يظنه البعض شدة وقسوة هو في الحقيقة رحمة وشفقة بالبشرية، فهم يزيحون عنهم الطواغيت التي تعبدهم لغير الله وتسلمهم لعدوهم اللدود الشيطان الرجيم فقد يكونون في أول الأمر أسرى للمسلمين في السلاسل فلا يمسي أحدهم بعد تعلمه الإسلام إلا والإسلام أحب إليه من أهله بل ونفسه التي بين جنبيه.

ومن هنا فإن حب الخير للناس صفة أساسية في الدعاة إلى الله تفتح لهم القلوب وتقربهم من الخلق وتأمل قول الله ـ عز وجل ـ لنبيه ﷺ : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧) ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] ، وهذه السمة لابد أن تظهر في الداعي من أول مقابلة ، ألم تسمع إلى قول الله تعالى عن صاحبي يوسف في السجن أنهما قالا له ولم يكن لهما به معرفة من قبل: ﴿ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف : ٣٦] .

فالإحسان إلى الناس وحب الخير لهم يظهر في الكلمة والبسمة ونبرة الصوت ورقة العبارة والرفق في الحديث والنصح الدائم.

ولا ينافي هذا أبداً بغض الكافرين وعداوتهم حال كفرهم فإنك إنما ترجو إخراجهم من هذا الذي تكرهه وتبغضهم من أجله إلى ما تحبه وتحبهم لو فعلوه.

والقول اللين لا ينافي بغض الكافر على كفره قال تعالى: ﴿ فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (٤٤) ﴾ [طه : ٤٤] .

والبعض يظن أن غرض الداعي في إقامة الحجة أن يجعل الناس يستحقون العذاب وهذا يظهر في طريقته في الدعوة والبيان والاهتمام بإصدار الأحكام حتى قبل الدعوة والبلاغ وهذا دائماً يكثر في أهل البدع ولا شك أن الإحسان

---

(١) من قول أبي هريرة رضي الله عنه كما رواه البخاري برقم ٤٢٨١ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ خير الناس للناس، تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم، حتى يدخلوا في الإسلام.

يأسر الإنسان وتأمل قصة إسلام ثمامة بن أثال لتعرف أثر الإحسان في الدعوة إلى الله فلا ريب أن سبيل السُّنَّة في البذل والعطاء وحب الخير العاجل والآجل لبني البشر.

خامسها: أنه أيقن بقدرة الله الذي لا يعجزه شيء على قتل هذه الدابة العظيمة برميه حجر من غلام مثله وهذا مما لا يقتل حيواناً صغيراً فضلاً عن دابة كبيرة عظيمة ولكنها الثقة بالله وقدرته وحسن التوكل عليه من محب صادق المحبة يبحث عنها بجهده ويتحمل في سبيلها الألم والضرر ويتضرع إلى ربه ومولاه متوسلاً داعياً .

فبهذا كله قويت تلك الرمية على قتل الدابة كما قال تعالى: ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [الأنفال : ١٧] ، وبهذا الإخلاص والصدق صار الغلام في عداد الصالحين الأولياء [١].

فلما عمُر قلب الغلام بالإيمان كان لسانه موافقاً لقلبه وما تخلف عنه، فالمرء مخبوء تحت لسانه متى تكلم بانت خلاله، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ﴾ [محمد : ٣٠] .

قال ابن كثير: أي فيما يبدو من كلامهم الدال على مقاصدهم يفهم المتكلم من أي الحزبين هو بمعاني كلامه وفحواه وهو المراد من لحن القول، كما قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه : ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه [٢].

قال السعدي: أي: لا بد أن يظهر ما في قلوبهم ويتبين بفلتات ألسنتهم، فإن الألسن مغارف القلوب يظهر فيها ما في القلوب من الخير والشر [٣].

---

(١) قصة أصحاب الأخدود للشيخ ياسر برهامي ص ٢١- ٢٦ .

(٢) عمدة التفسير ٣ / ٢٨٦ .

(٣) تيسير الكريم الرحمن ص ٨٧٨ .

الدرس الثاني: كرامات الأولياء :

من هم الأولياء ؟ :

يظن معظم الناس أن كل من ظهرت على يديه خوارق العادات[١] أنه ولي، بل زعموا أن المعتوهين والمجانين هم أولياء لله، فكل من ظهرت عليه علامات البله والجنون فهو ولي من أولياء الله، ولكن هل هذه هي الحقيقة ؟ فتعالوا نتحاكم إلى كلام الله لنعرف من هو الولي بحق، يقول جل في علاه: ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٤) ﴾ [يونس: ٦٢- ٦٤]. ففي هذه الآيات يحدد الله - عز وجل - صفات أوليائه بأنهم الذين آمنوا وكانوا يتقون، فالولي هو كل مؤمن تقي .

وصفات المؤمنين مبثوثة في طول القرآن وعرضه ومن أهمها ما ورد في أول سورة المؤمنون وقوله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩) ﴾ [المؤمنون :١-٩] .

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ

---

(١) تنقسم خوارق العادات إلى أربعة أقسام:

[١] معجزة: وهي مقترنة بدعوى النبوة .

[٢] إرهاصة: وهي ما يظهر من الخوارق قبل ظهور النبوة، وهذه والتي قبلها قد انتهيتا بختم النبوة بالحبيب محمد ﷺ .

[٣] كرامة: وهي ما يظهر على يد شخص ظاهره الصلاح غير مدع للنبوة أو الرسالة.

[٤] استدراج: وهي ما يظهر من خوارق على يد الفاسق أو الكافر. وهذه والتي قبلها باقيتان إلى قيام الساعة.

آياتُهُ زادتْهُمْ إيمانًا وعلَىٰ ربِّهِمْ يتوكَّلُونَ (٢) الَّذين يُقيمُونَ الصَّلاةَ ومِمَّا رزَقْناهُمْ ينفقُونَ (٣) أُولَئكَ هُمُ الْمُؤْمنُونَ حقًّا لَّهُمْ درجَاتٌ عند ربِّهِمْ ومَغْفرةٌ ورزْقٌ كريمٌ (٤) ﴾ .

[الأنفال : ٢-٤] .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (١٥) تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (١٦) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧) ﴾ [السجدة : ١٥-١٧] .

أما صفات المتقين فقد ذكرها الله ـ عز وجل ـ في أكثر من موضع من كتابه ومنها على سبيل المثال قوله عز وجل : ﴿ الٓمٓ (١) ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦) ﴾ [البقرة : ١-٦] .

وقوله تعالى : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (١٣٦) ﴾ [آل عمران : ١٣٣-١٣٦] .

وقوله تعالى : ﴿ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ

الطَّيِّبات ويُحرِّمُ عليهمُ الخبائث ويضعُ عنهم إصرَهُم والأغلالَ التي كانتْ عليهمْ فالذين آمنُوا به وعزَّروهُ ونصروهُ واتَّبعُوا النُّورَ الذي أُنزلَ معهُ أُولئكَ هُمُ المُفلحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [الأعراف : ١٥٦ – ١٥٧] .

وقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ [البقرة : ١٧٧] .

فمن استجمع هذه الصفات فهو مؤمن تقي، ومن كان مؤمناً تقياً فقد صار لله ولياً، وليس من لوازم الولاية أن تظهر على يديه خوارق العادات، ولكن من ظهرت على يديه خوارق العادات يجب أن يُعرض أمره على الكتاب والسُّنَّة فإن وافقهما فهو من أولياء الله ومن خالفها فهو من أولياء الشيطان .

وفي ذلك يقول الإمام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ : اتفق أولياء الله على أن الرجل لو طار في الهواء أو مشي على الماء لم يُغتر به حتى يُنظر متابعته لرسول الله ﷺ وموافقته لأمره ونهيه[١] .

فليس كل من ظهرت على يديه خوارق العادات ولياً لله بل الولي الذي يجده ربه ـ عز وجل ـ حيث أمره ويفتقده حيث نهاه، فهو مخلص، صوام، قوام، آمر بمعروف، ناه عن منكر، يتقرب إلى الله ـ عز وجل ـ بما فرضه عليه، ويزداد منه قرباً باستنانه بسُنَّة الحبيب محمد ﷺ ، وفي ذلك ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **إن الله قال : من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إلى مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته : كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي**

---

(١) التوضيحات الحسان ص ١٠٤ .

يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينَّه، ولئن استعاذني لأعيذنَّه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته » (١).

واعلم أن أولياء الله على الحقيقة لا يحبون أن تظهر على أيديهم كرامات، أو خوارق عادات، وذلك لأنهم يخافون أن تكون قد عُجِّلت لهم حسناتهم ومن هؤلاء التابعي الجليل أويس القرني،فقد ورد عن الحسن أنه قال :قال رسول الله ﷺ :« **يدخل بشفاعة رجل من أمتي الجنة أكثر من ربيعة ومضر، أما أسمى لكم ذلك الرجل؟** ، قالوا: بلى، **قال: ذاك أويس القرنى**، ثم قال: **يا عمر! إن أدركته فاقرئه مني السلام وقل له حتى يدعو لك**» ، **وأعلم أنه كان به وضح** (٢)، **فدعا الله فرفع عنه ثم دعاه فرد عليه بعضه**، فلما كان في خلافة عمر قال عمر وهو بالموسم: ليجلس كل رجل منكم إلا من كان من قرن، فجلسوا إلا رجلاً، فدعاه فقال له: هل تعرف فيكم رجلاً اسمه أويس؟ ، قال: وما تريد منه؟ ، فإنه رجلٌ لا يُعرف يأوي الخربات لا يخالط الناس، فقال: اقرئه منِّي السلام وقل له حتى يلقاني ، فأبلغه الرجل رسالة عمر فقدم عليه، فقال له عمر: أنت أويس؟ فقال: نعم يا أمير المؤمنين! فقال: صدق الله ورسوله هل كان بك وضح فدعوت الله فرفعه عنك ثم دعوته فرد عليك بعضه ؟ فقال: نعم، من أخبرك به ؟ فوالله ما أطلع عليه غير الله ! ، قال: أخبرني به رسول الله ﷺ وأمرني أن أسألك حتى تدعو لي وقال: يدخل الجنة بشفاعة رجل من أُمَّتي أكثر من ربيعة ومضر ثم سماك، فدعا لعمر ثم قال له: حاجتي إليك يا أمير المؤمنين أن تكتمها على وتأذن لي في الانصراف، ففعل، فلم يزل مستخفياً من الناس حتى قتل يوم نهاوند فيمن استشهد » (٣).

---

(١) رواه البخاري برقم ١٣٧ ، والجامع الصغير برقم ١٧٥٢ ، وكنز العمال برقم ٢١٣٢٧ ، ورياض الصالحين برقم ٩٥ .

(٢) مرض يصيب الجلد « البرص » وينشأ عن غياب المادة الملونة من بعض أجزاء الجلد .

(٣) كنز العمال برقم ٣٧٨٢٨ .

فانظر إليه رحمه الله يكتم حاله فيحتقره واحد من قومه ويقول: (إنه لا يُعرف يأوي الخربات لا يخالط الناس) ولم يفرح بظهور حاله، ولكنه طلب من الفاروق عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يكتم أمره، ثم استخفي بين الناس حتى لا يُعلم حاله.

أما أولياء الشيطان فيُظهرون ما يظهر لهم من خوارق العادات لكي يكثُروا مريديهم ويلبِّسوا على خفاف العقول ومعظم ما يظهر على أيديهم من قبيل السحر والشعوذة.

واعلم أنه ما من ولي لله على الحقيقة صرح أنه ولي لله، أما أولياء الشيطان فيدَّعون ذلك رغم أنهم ليسوا كذلك، وهذا من جرأتهم على الله وحلمه عليهم، وذلك لأن وصف النفس أو الغير بالولاية نوع من التزكية التي نهى الله عنها فقال: ﴿ **فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ** ﴾ [النجم : ٣٢] .وقد نهى النَّبيّ ﷺ عنها كذلك، فقد نهى إحدى الصحابيات عن تزكية عثمان بن مظعون رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رغم أنه من صحابته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقد ورد عن خارجة بن زيد بن ثابت: أن أم العلاء، امرأة من الأنصار بايعت النَّبيّ ﷺ، أخبرته: أنه اقتسم المهاجرون قرعة، فطار لنا عثمان بن مظعون، فأنزلناه في أبياتنا، فوجع وجعه الذي تُوفي فيه، فلما تُوفي وغُسل وكُفن في أثوابه، دخل رسول الله ﷺ، فقلت: رحمة الله عليك يا أبا السائب، فشهادتي عليك: لقد أكرمك الله. فقال النَّبيّ ﷺ: « **وما يدريك أن الله أكرمه** »، فقلت: بأبي أنت يا رسول الله، فمن يكرمه الله ؟ فقال: « **أما هو فقد جاءه اليقين، والله إني لأرجو له الخير، والله ما أدرى، وأنا رسول الله، ما يُفعل بى** ». قالت: فوالله لا أزكي أحداً بعده أبداً »[1].

ثم إنهم أولياء من ؟ أولياء الله، فالله ـ عز وجل ـ أعلم بهم من غيره لأنهم أولياؤه، فوصف أحد الناس بالولاية أو سلبها عنه من التألي على الله، والدخول فيما لا يعنى، فمن علمنا عليه الصلاح شهدنا له بالخير ولا نزكيه على الله سواء

---

(١) رواه البخاري برقم ١١٨٦، ٢٥٤١، ٣٧١٤٠، وأحمد برقم ٢٧٤٩٧، والحاكم في مستدركه برقم ١٤٠١، والبيهقي في الكبرى برقم ٦٥٠٢، والنسائي في سُننه الكبرى برقم ٧٦٣٤.

ظهرت عليه خوارق عادات أم لم تظهر، ومن لم تظهر على يديه خوارق العادات لا نقدح فيه وأمره إلى الله.

ولما كانت خوارق العادات عملة ذات وجهين وجه طيب (الكرامة) يظهر على يد أهل التقى، ووجه قبيح (استدراج) يظهر على يد أهل الضلال سعى أهل الضلال في كل واد تحصيلاً لها ومن هذه المسالك تعلم السحر والعمل به، وما حصلوها إلا بشق الأنفس، وبعد أن ارتهنوا النفس والنفيس في يد الشيطان، ولو أنهم التزموا شروطها من الإيمان والتقوى لأتت إليهم راغمة وإلى ذلك أشار ربنا في محكم كتابه فقال : ﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢) وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٣) ﴾ .

[البقرة : ١٠٢- ١٠٣] .

يقول ابن تيمية ـ رحمه الله ـ تعقيباً على هذه الآيات:

فبين سبحانه أن طلاب السحر يعلمون أن صاحبه ما له في الآخرة من خلاق أي من نصيب و لكن يطلبون به الدنيا من الرئاسة والمال ولو أنهم آمنوا و اتقوا لحصل لهم من ثواب الله في الدنيا والآخرة ، ما هو خير لهم مما يطلبونه [١].

(١) مجموع الفتاوي ٢٩ / ٢٢٣ .